



## الهوية الجنسية بناء اجتماعي وثقافي

### نموذج المثلية الجنسية

الباحث طارق اجيجي

طالب في سلك الدكتوراه

مختبر الديناميات المجتمعية والابتكار الاجتماعي

تحت إشراف: الدكتورة عزيزة خرازي

### ملخص الدراسة:

شكل مفهوم الهوية بصيغتها الجنسية موضوع ذو شجون، من حيث أنه يرتبط بالجسد وسماته الجنسية وانعكاسه الاجتماعي، فجنسانية الأفراد بشكل عام ترتكن لتصور السوسيو ثقافي التي يحكم المجتمع الذي تنتمي إليه. بالتالي فنحن بصدد مفهوم مطاطي متغير يكتسي معاني متعددة وفقا للبيئة التي تنتجها، وهنا تدرج ثنائية الهوية الجنسية أم الهوية الجندرية كلاهما يشيران لنفس المعنى فقط لثاني معاني أعمق فهو يشير للمعطي الاجتماعي أكثر من الجوانب الفيزيولوجية والبيولوجية بشكل أكثر تدقيقا.

### summary:

The concept of identity, particularly in its sexual form, is a highly complex subject since it involves the body, its sexual features, and its social reflection. Individuals' sexuality is largely determined by the socio-cultural perceptions of the society to which they belong. As a result, we are dealing with a flexible, changing term that takes on many meanings depending on the context in which it is formed. This encompasses the dichotomy of sexual identity and gender identity. While both pertain to the same concept, the latter has deeper significance because it focuses on the social construct rather than the physiological and biological elements.

الكلمات المفتاحية: الهوية الجنسية، الهوية الجندرية، الجنسانية، الجنوسة، الهوية الاجتماعية، البناء الاجتماعي.



## مقدمة:

جندر او علم النوع الاجتماعي أو الجنوسة حسب بعض الترجمات ف العربية بالإنجليزية (Gendre) وهو علم الجنس السوسولوجي / الاجتماعي وعن المصطلح دراسة المتغيرات حول مكانة كل من المرأة والرجل في المجتمع لدراسة الدور بغض النظر حول الفروقات البيولوجية بينهما وفقا لدراسة التي يقومان بها. أي أن المرأة والرجل ينبغي النظر إليهما من منطلق كونهما إنسان بغض النظر عن جنس كل منهما وهذا العلم لا يخص المرأة فحسب وإنما يعني الرجل كذلك<sup>1</sup>.

جدير بالذكر أن المستجدات التي افرزت ميلاد نقاش الهوية الجنسية، كظهور مفهوم الجندر كمرادف أساسي لكل المسارات التي سلكتها الحركة النسائية لإنتاج هذه المفاهيم التي تهدف إلى إزالة غطاء اللامساواة الاجتماعية التي تعكس وضعية المرأة في مقابل الرجل، بيد أنه كذلك مرتبط بنقاش المهمشات الجنسية كنقاش المثلية الجنسية والسياق الدولي الذي اضحى يجعلها أولوية الأولويات مع تباين التصور حولها كظاهرة هناك قبول في بعض المجتمعات فيما تعتبر عنصرا شادا عن الطبيعة في مجتمعات أخرى.

## سؤال البحث:

إن الهوية الجنسية مفهوم ملتبس لا سيما في السياق الذي يبرز فيه الطابع المحدد لها، هل ما هو بيولوجي وفيزيولوجي بالدرجة الأولى؟ أم المعطى السوسيوثقافي؟ بمعنى آخر هل يمكن أن نسميها هوية جندرية أم هوية جنسية؟ هذه الأسئلة شكلت لنا دافعا كبيرا للبحث وراء كل الحقول المعرفية بالخصوص حقل العلوم الإنسانية عبر تفقي مفاهيم ترتبط بشكل جدلي بمفهوم الهوية الجنسية. وعلى الرغم من أن مفهوم الهوية الجنسية عادة لدى العامة يمثل نقاشا طبيا بالدرجة الأولى، ويكون خاضعا في الغالب لتحديدات عضوية أكثر من أي شيء آخر. بيد أنه لا يمكن في الحقيقة تخليص بعد جنساني من محتواه السوسيوثقافي وحتى تأثيراته النفسية على اعتبار الارتباط الجدلي بين الاجتماعي والنفسي.

## منهجية البحث:

تحدد منهجية الدراسة في المنهج العلمي، الذي تمت الاستعانة به لتوصل على نتائج الدراسة على اعتبار أن هذه الدراسة موجه بالأساس لتكشف عن أهم السمات الاجتماعية التي تميز بين الافراد وفقا لميولاتهم الجنسية، ويشكل من جهة أخرى فرصة لاكتشاف السمات الاجتماعية لذوي الهويات الجندرية (المثليين)، انطلاقا من هذه المقدمات تم تبني مقاربة كيفية تتغيا فهم البنيات المتحركة في إنتاج الهوية الجنسية اجتماعيا.

## التأصيل النظري لمفهوم الهوية الجنسية:

إن أوسع النظريات المتعلقة بعلم الجنس انتشارا في النصف الأول من القرن العشرين كانت بلا ريب نظرية التحليل النفسي "سيغموند فرويد"، والتحليل النفسي كنظرية فلسفية ونفسية وكأسلوب لعلاج العصابات النفسية هو بدون شك، أوسع بكثير من مشاكل علم الجنس، لا أريد هنا الغوص في كل هذه القضايا، وأحيل القارئ للأدب الخاص بها.

انطلق فرويد في تحليل البعد الجنسي دون الاشارة بالضرورة لتشكيل الهوية الجنسية كمفهوم في متنه التحليلي، بقدر ما ركز على العلاقة المرتبطة من جهة بين الدافع الجنسي ومفهوم الحب، ومن جهة أخرى الاضطراب النفسية التي تكون ناتجة عن خلل في تمثّل أو ممارسة مرتبطة بالجنس، وبالنسبة لفرويد فالجنس يفصل عن ارتباطه الصميمي بالأعضاء التناسلية وما تحمله من دلالة عضوية، وينظر له كوظيفة جسدية عامة تستهدف المتعة وغيرها يتحقق من جهة أخرى إنتاج النوع، بتعبير آخر لا يمكن ربط الأحاسيس الجنسية فقط بالمنطقة التناسلية، بل تمتد إلى أماكن أخرى في الجسم.



أكد فرويد في هذا الصدد " بالاستناد على المعطيات السريرية على وجود عدة مناطق حساسة جنسيا تتولد بإتيانها مشاعر شبقية، مع العلم أن فاعلية هذه المناطق تتبدل مع التقدم في السن. واستنادا إلى هذا يميز فرويد بين عدة مراحل للتطور الجنسي النفسي، المرحلة الأولى أو الفموية، وتشتمل السنة الأولى من العمر، حيث الفم هو العضو الرئيسي للذة لدى الطفل (المص ثم العض)، المرحلة الثانية أو الشرجية (1 — 3 سنوات) تتميز هذه المرحلة بازدياد اهتمام الطفل بعملية التغوط، يشعر الطفل باللذة أثناء مراقبة هذه العملية ويتمرن في الوقت ذاته على الضبط الذاتي. المرحلة الثالثة أو القضيبيية (3 — 5 سنوات) وتتميز بازدياد الاهتمام بالأعضاء التناسلية، ويتجلى هذا جزئيا بالاستمناء، والرمز الرئيسي في هذا السن هو العضو التناسلي (ومن هنا جاءت التسمية)، والمهمة الأساسية لهذه المرحلة هي التماثل الجنسي التلازمي.

يترتب على الصبي في هذه المرحلة أن يتخلص من ميله اللإرادي نحو والدته (مركب أوديب) ويتسابه مع والده، أما البنت فتتخلص من ميلها نحو الأب (مركب إلكترا) ومن جسد الصبيان على وجود القضيب عندهم وتتماثل بالتالي مع الأم، المرحلة الرابعة أو الكامنة تستمر حتى بداية البلوغ الجنسي، وتتميز بانحسار مؤقت لردود الفعل والاهتمامات الجنسية، وتخبو الرغبة الجنسية فاسحة المجال لظهور "الأنا" الواعية والاهتمامات المادية عند الطفل، ومع البلوغ الجنسي تبدأ المرحلة التناسلية لتطور الفرد، عندما تجد الرغبة الجنسية (الكرع) اشباعها عن طريق المعاشرة الجنسية، فإذا اعترض شيء ما إحدى هذه المراحل يحدث التراجع القهقري نحو المراحل السابقة. ويرى فرويد في التقهقر النفسي (الإعاقه) نحو المراحل السابقة مفتاحا لفهم كل أشكال الانحرافات الجنسية، لم ينكر فرويد تأثير العوامل البيوية والكيمياوية العصبية التي تدفع الفرد نحو هذا الانحراف أو ذاك، لكنه اعتقد — لم تكن هذه العوامل قد اكتشفت بعد، وحتى بعد اكتشافها — بأن الوسيلة الرئيسية والوحيدة لعلاج هذه الانحرافات هي التحليل النفسي، أي التحري عن الصدمة النفسية التي أعاقت أو شوهت السير الطبيعي للتطور الجنسي النفسي عند الفرد، والتخلص من العواقب النفسية لهذه الصدمة عن طريق وعي أسبابها"<sup>2</sup>.

يبدو أن فرويد يرفض الحتمية البيولوجية حول الجنس ويركز على سمات التطور الفردية، ويميز كذلك بين الدافع الجنسي النفسي وبين التعلق الشبقي واللاشعقي، ربما هنا قد لا نجد هذه المعطيات بعيدا عن التحديدات التي تشكل الهوية الجنسية، ولكن العطف بالنسبة لنا فهذه المعطيات تخترن بين طياتها التصور الفرويدي للهوية الجنسية التي تتشكل بشكل مزدوج وفي خط تطوري بين نمو الفرد الجسدي والعاطفي واقتارانه بتطور الاحساس الجنسي ونموه بشكل جذري عبر عدة مراحل لكل منها سماتها الخاصة.

يشير فرويد ولو بشكل غير جدي للمعايير الثقافية وتأثيرها على الدافع والسلوك الجنسي، تبعا لذلك فإن الهوية الجنسية ترتبط بالأساس بمراحل التطور الفردي التي تزوج في مسارها بين المعطى العضوي والنفسي، وهي التي تؤثر بشكل مباشر على ميولات الأفراد الجنسية، فأغلب التعاريف والتي أصبحت مصدرا أساسيا لمجموعة من الجمعيات والمنظمات التي تأخذ على عاتقها الدفاع عن حقوق الأقليات الجنسية، تربط الهوية الجنسية بإحساس الفرد بذاته ما إذا كان ذكرا أو أنثى، كما تقيم اختلافاتا كامنا بين الهوية الجنسية أو الجندرية وهوية الأفراد الاجتماعية.

تشكل الهوية الجنسية مبحث سوسولوجي يستوجب الإحاطة بجوانب متعددة لشخصية الأفراد، من جهة أخرى والمعايير المتحكمة في تشكيل هذه الهوية اجتماعيا وثقافيا. فإن هذا الفصل سينقسم إلى حقلين، الأول منصب حول المؤشرات الأولية التي تعطي صورة مصغرة حول تشكل الهوية الجنسية ثم مسار التعايش الذي تعنى به بشكل أكثر تدقيقا، جل التفاعلات التي تجمع الأفراد بينهم ومع الجماعة الاجتماعية التي ينتمون إليها، والتي عبرها يتم إعطاء تعريف للهوية الجنسية حسب المرغوب فيه اجتماعيا، فالسياق السوسيوثقافي ضمن مجال بحثي أجمعت أغلب الدراسات السوسولوجية والاثروبولوجية والتاريخية على كونه مجال اجتماعي ينضوي على عوالم مختل تبرز بشكل خاص السمات الثقافية لتمثل الهوية الجنسية والانطلاق من مقدمات سوسيوثقافية لتحديد ماهية النوع



الاجتماعي ووفقه يتم وضع نظام جنساني ومميزاته التراتبية بين المذكر والمؤنث، تغدو وفقه المهمشات الجنسية ضمن الدونيات التي تحد لها امتدادا رمزيا داخل الطبيعة كما يحدد ذلك السوسولوجي الفرنسي بيير بورديو في كتابه "الهيمنة الذكورية" وفق الآتي:

اعلى يمين (من الشمال إلى اليمين دين)

مذكر (رسمي / ديني، عمومي)

ساخن، جنوب، نهار، منتصف النهار ( ) صيق، ابيض

مذكر مهيمن مقدس قانون

نار شمس ذهب

نسر نور سماء

حناء نيف أحمر

عمر النضوج

شيخوخة

كانون مشوي مبهر ناضج كسرة كسكسي قمح ملح

رطب

سكين بندقية كيس منجل مشط الذندف حلفاء

داخل

ناشف

فوق (عارضة رئيسية)

خارج (حقل مجمع سوق)

ناشف

خارج

صباح  
ربيع  
شرق

مفتوح

فارغ

صباح  
ربيع  
شرق

= خصوبة

حائط نول النسيج كبوت

ش ش عتبة ج غ

ش ش عتبة ج غ

حائط

الظلمة



ملان (الفخ)	
مغلق (صعب اغلاق)	
داخل (منزل حديقة نافورة خشب)	داخل
	خارج
تحت (ممددة دعامة مركزية)	رطب
	ناشف رطب
رطب	
بطن رمانة حجلة دجاجة	
( ) ابنة خالة سر أسود	
قدر مغلي (ة) شعير ناعم بلا نكهة	طفولة
	زواج ممنوعات المساء
اسطبل نعاش (موت ارضها حرمة)	
قبر ظلمة قمر	
	ولادة
	حمل
طبيعة مفتوحة مقدس شمال مهيمن عليه	مؤنث
بارد شمال ليل شتاء ( )	
مؤنث (شبه رسمي، سحري، عادي)	
أسفل شمال (من اليمين إلى الشمال) ملوي	
طبيعة متوحشة	
مفرد	
عري فتاة شابة. مياه راكدة	
غولة ساحرة خيانة احتيال	
رنجي حداد ابن اوى (التقسيم) خنزير بري	
ترسيمة إجمالية للتقابلات الأكثر بروزاً <sup>3</sup>	



يمكن أن نقرأ هذه الترسيمة من خلال التقييد، إما بالتقابلات العامودية (ناشف / رطب. أعلى/ أسفل. يمين / شمال. ذكوري/ أنثوي ... إلخ)، وإما بالسيرورات ( سيرورات دورة المياه : زواج، حمل، ولادة... إلخ)، أو سيرورات السنة الزراعية، وبالحركات (فتح/أغلق. دخل / خرج ... إلخ). هذه الترسيمات الرمزية للعالم الحنساني المغربي والتي توضح هذه الخطاطة لمجتمع القبائل الذي يتقاطع مع المجتمع المغربي بشكل كبير في تمثله للفعل الجنسي، عب بناء الجسد اجتماعيا كواقع محسن، تبقى عبره الاختلافات القائمة بين الجنسين ويقول بورديو في هذا الصدد " إن العالم الاجتماعي يبني الجسد واقعا مجنسا، ومؤتمنا على مبادئ رؤية مجنسة، وينطبق هذا البعد الاجتماعي المستمدح للإدراك على كل الأشياء في العالم، وهي في المقام الأول على الجسد نفسه في حقيقته البيولوجية، وفق مبادئ أسطورية للعالم متحذرة في العلاقة الاعتباطية لهيمنة الرجال على النساء، وهي ذاتها متأصلة، مع تقسيم العمل، في حقيقة النظام الاجتماعي"<sup>4</sup>.

تبدو التبريرات الاجتماعية للتمييز القائم على الجنس يجد ما يستند عليه لإثبات وتأييد هذه المسلمات عبر ابراز الاختلافات القائمة بين الجنسين كالاختلاف التشريحي بين الأعضاء التناسلية، هذا التبرير يستمدح كحقيقة طبيعية إلا أنه في هذا السياق يجب أن نقف عند مسألة أساسية، هو أننا في هذا المتن نتحدث عن جنسين أي الرجال والنساء وليست هناك أي إشارة للأقليات الجنسية، قد يطرح سؤال مركزي هنا وه ما وضع الأقليات الجنسية داخل هذا البناء الحنساني وما دورها؟

إن الإجابة على هذا السؤال تقتضي الانطلاق من المقدمات السابقة المرتبطة بأسرار الحياة الجنسية لدى المستجوبين، اعتبارا منا لتمثلات المبحوث على نفسه وجسده، وكيف ينظر لنفسه وللمجتمع انطلاقا من تمثلاته التي سوف نقوم بتقسيمها إلى ثلاث مستويات أساسية:

- ✓ **المستوى الأول:** تشكل الهوية الجنسية وفق الأبعاد السوسيوثقافية المميزة للمجتمع المغربي، التي سترز المؤشرات التي يعتمد عليها المجتمع لتعريفه للهوية الجنسية أو الجندرية إن صح التعبير.
- ✓ **المستوى الثاني:** البحث في مسار التعايش مع الميولات الجنسية المختلفة لكشف طبيعة التفاعل مع المحيط الاجتماعي وطرق التكيف مع الرفض الرسمي للمجتمع.
- ✓ **المستوى الثالث:** رصد الحياة الجنسية وكل الملابس المحيطة بها لوضع استنتاجات واضحة المعالم حول العوالم الاجتماعية غير الرسمية التي تميز وضع ذوي الهوية الجندرية المختلفة كأقليات جنسية.

#### دور الأبعاد السوسيوثقافية في تشكيل الهوية الجندرية.

إن الجنسانية موضوع دائم للنقاش في الأوساط الاجتماعية، غير أن هذا النقاش يكتسي طابعا عفويا تلقائيا، لا يكون بشكل مباشر، يتغذى على احتشامات ألفت به في ذلك المعنى غير المباشر، لهذا نجد أن داخل مجتمعنا المغربي لا يكون نقاش حول الجنسانية مع الأفراد من طفولتهم، باستثناء بعض التلميحات التي يكون فضاءها جماعة الأقران لدى الذكور، أو فضاءات معينة الحمامات التي تشكل الفضاء الأمثل للنقاش الجنسي لدى النساء.

إن ما يمكن الانطلاق منه من هذه الاستجابات هو أن جميع المبحوثين كانت لديهم الاشارات الأولية للطبيعية الجنسية في سن مبكرة، وهذا يتنافى مع المنطق الفرويدي، الذي يعتبر مرحلة خمس سنوات لا يكون الفرد فيها واعيا بالأعضاء التناسلية ورغبته الجنسية تكون منحصرة في الفم في المرحلة الفموية والشرج في المرحلة الشرجية.



تتدخل أبعاد أخرى في تشكيل الأنا الجنسية للأفراد غير البعد البيولوجي، من جهة أخرى، فللمجتمع دور فعال في إلباس الجسد الإنساني بمختلف الرمزيات الثقافية، وعبرها يتم بناء هوية اجتماعية للأفراد، يندمج فيها الجنسي بالسيكولوجي بالاجتماعي، ويظهر مفعول تأثير المعطى الاجتماعي بشكل جلي في ردة الفعل التي يبديها ذوو الهوية الجندرية المختلفة تجاه الاستيهامات البدنية لميولاتهم الجنسية المختلفة، والتي يتم كبها عبر القيم والضوابط التي يتلقنها الأفراد داخل الأسرة، فتصبح شيئاً فشيئاً قواعد ثابتة للسلوك والتفكير، وهنا يتم تشكيل صورة ثابتة عن الميول الجنسي انطلاقاً من منطلق التمثيل الجمعي، الذي ينتقل إلى الأفراد عبر مختلف مؤسسات التنشئة الاجتماعية.

إن جزئية الإخفاء التي يلجأ إليها المهمشون جنسيا تبرز إلى حد بعيد نفس الاستنتاجات التي ترجع إلى رصد تاريخي في الواقعة الجنسية المختلفة في السياق المغربي، هذا ما ذهب إليه مالك شبل عندما اعتبر أن الواقعة الجنسية المختلفة وجه بارز لتهميشية الجنسية مرعب تعد مبحثاً هاماً، يظهر الاستعمالات الجنسية المختلفة والتمثلات الصوتية والصوروية الملبسة التي يمارسها المراهق في سياق من المرح والغبطة، والتي تأخذ بعداً جمالياً، بينما هي في المسرح الاجتماعي الرسمي عادات مستهجنة تكنم شأن باقي الهرطقات المحرمة، التي تنتج عن دائرة غير ملموسة للايروس الاجتماعي المغربي.

إن جل أشكال المهمشات الجنسية تتعرض للإبعاد الاجتماعي فتمارس على هامش المجتمع، هذا ما يكفّن الأفراد المجتمع منذ الصغر لها تكبّت كل الرغبات المنحرفة اجتماعياً، ويتم تصريفها على شكل رغبات مكبوتة أثناء النوم وأحياناً أثناء الاستمناء أو ممارسة العادة السرية، كفعل تخيلي لعلاقة جنسية مرغوبة لم تتحقق في الواقع، بالتالي فإن الحديث عن الجنس خارج العلاقة المتعارف عليها اجتماعياً، ينظر إليه بنظرة التحريم والتكفير، بل فحق إثارة مجرد نقاش جانبي حول الجنس هو بمثابة الخطأ وهذا يميز الخطاب التمييز للجنس المسيطر اجتماعياً، والذي يتجسد في الذكر والذكورة كقيمة اجتماعية لا غبار عليها، فهي الوحيدة المسموح لها بالظهور، فحتى الأنوثة في هذا السياق الاجتماعي ليس لها الحق أن تكون في نفس مكان الذكورة فهي إن صح القول خلقت من أجل إمتاع الذكر .

إن هذا الإقصاء للمهمشات الجنسية ليس اعتباطياً، فهو ينطلق من صميم النظام الاجتماعي، فهو يقصي الفرد المنتمي للمهمشين جنسيا انطلاقاً من ضرورة اجتماعية، المقصود منها الحفاظ استمرارية وتماسك البناء الاجتماعي برمته، للانطلاق مجدداً من اللعب كصيغة لتنشئة الأفراد على أدوار معينة داخل المجتمع، وكمؤشر للفروق الجنسية، عبر تقسيم قائم على الجنس للألعاب، فالألعاب المنزلية وتعبير آخر الألعاب التي تعبر عن أعمال منزلية ووظائف مرتبطة بالبيت كتربية الأطفال فإنها تتحول بشكل مباشر إلى ألعاب مرتبطة بالإنانث، بينما الألعاب الأكثر صلابة والأكثر تشويقاً كالألعاب الحربية فإنها مرتبطة بالذكور. وهكذا يصبح اللعب ليس فقط كأداة للتسلية بل أداة تعمق الفروق الجندرية بين الذكور والإنانث، بل وتجعل الأدوار الاجتماعية لكليهما مستبظنة عبر عمليات التعلم التي تلقاها الفرد عبر الأسرة والمدرسة وكذلك عبر اللعب بمختلف أشكاله.

يكشف فالأفراد أجسادهم في فضاءات معينة، بالنسبة لنا وفق معطيات البحث الميداني، فأهم الأماكن التي أشار إليها المستجوبون في هذا الصدد استرعى انتباهنا هو الإشارة على فضاء اجتماعي لطالما شكل اهتماماً تاريخياً، لكونه يشهد على أحداث جنسية لا سيما بين النساء، والذي يتجسد في الحمام التقليدي المغربي، الذي أشار إليه بعض المستجوبون، والذين ربطوا مرحلة اكتشافهم لميولاتهم الجنسية المختلفة بالحمام، من هنا بدأ يبرز لديهم انجذاب لبني جنسهم، ويتم تعريف هذا الانجذاب في غالب الأحيان عبر استيهامات ليلية، أو تصور تلك الرغبات الجنسية عبر افتراض علاقة جنسية مختلفة عبر العادة السرية.

يبقى هذا التصريف طبعاً للطاقة الجنسية سريراً بين الفرد وذاته، على اعتبار أنه داخل هذا السياق الاجتماعي لا أحد بمقدوره أن يظهر مشاعره وانجذاباتة دو الأخذ بعين الاعتبار للسياق الذي ينتمي إليه، هكذا يحسم المجتمع مسبقاً في طبيعة السلوكات المسموح بها داخل المجتمع وعبرها يتم تفعيل سلوكات معينة خاصة بالرجل وسلوكات وردود فعل معينة خاصة بالنساء، بينما يتم الزج بالمهمشات



الجنسية في كواليس الحياة الاجتماعية كما لو كانت هذه الأخيرة مسرحا والأفراد ممثلين يؤدي كل منهم دورا معيناً، وفق حبكة متقنة ضابطة لقواعد اللعبة، التي تجعل السلوكات المنبذة في هامش الحياة الاجتماعية، تماما كما يتم الزج بالأعضاء الثانويين في الكواليس. أشار المستجوبون إلى تسميات ترتبط بالهوية الجندرية المختلفة في السياق السوسيوثقافي المغربي، تسمية الخنثى أو المخنث بالدارجة المغربية ولابد من الرجوع مجدداً إلى أفكار واستنتاجات مالك شبل في كتابه الجنس والحريم وروح السراري الذي يعتبر المتخيل المغربي يتشكل أساساً من عنصرين ثقافيين الأول أمازيغي وسيطر على أغلب ردود الأفعال الصادرة عند الإنسان المغربي، والثاني عربي الذي امتزج مع الأمازيغي عبر عملية التلاقح التي أعقبت اعتناق سكان شمال أفريقيا الإسلام، وبذلك الاستناد عليه في سلوكياتهم وقيمهم الاجتماعية، إن هذا المركب الثقافي عبر تحلياته المتعددة، يتأرجح بين الاعتراف البسيط والصريح بالخنثى، باعتباره من جهة صناعاً للمعنى وضده من جهة أخرى، فهذا العنصر لا هو برجل ولا هو بامرأة، بذلك تبقى الذهنية المغربية جنسانياً إحدى أكثر الذهنيات ترمزاً في العالم تجاه موضوع الهوية الجندرية المختلفة، لهذا يتم التفاعل معها ومع جميع المهمشات الجنسية بالإقصاء كشكل شبه وقائي.

إن تثبيت هوية جندرية في السياق الاجتماعي المغربي يمتد على ثلاث مستويات أساسية، المستوى الأول هو تربوي بالأساس تنقل عبره جل القيم الاجتماعية للأفراد ويتم عبره بناء الصورة المثالية للفرد المرغوب فيه، ويتم تثبيت هذه الصورة منذ الطفولة حتى يصل الفرد مرحلة الرشد ويتشبع ويستبطن القيم الاجتماعية فتصبح جزءاً لا يتجزأ من شخصيته، وتنعكس حتى في تمثله للحياة الاجتماعية وتنعكس كذلك على سلوكه وردود أفعاله.

إن الكبت المتدرج للجنسية المثلية (المعتبرة شذوذاً عضوياً) هو بمثابة العمود الفقري للتربية الجنسية التي يتلقاها الفاعل المغربي، ذلك أن الاضطرار الاجتماعي يحمل باكراً من خلال حرمان الطفل من أي اهتمام بانجذاب محتمل لصاحب في اللعب، إن هذا الاضطرار في الواقع بنية علوية سلوكية لا شعورية تطارد الطفل، أراد ذلك أم لم يرد، كل دمعة للجنس الآخر، كل أثر للجنس المتخفي (recessive)، سواء كان مرتبطاً بالمظهر الخارجي أو بالجانب النفسي، هكذا فإن الزواج التقليدي بالشكليات التي يجري بها، ومن خلال جوانبه الإظهارية، لا يؤكد إلا اعترافاً لاحقاً بالجنس القائم على اشتهاؤ المغاير الذي يبدو وكأنه آخر ما ينتهي إليه الخيار الجماعي: "أتزوج، يقول لسان حال المتزوج، إذن فأنا مشتة للمغاير" منذئذ تكون الممارسة الجنسية المزدوجة قد أقصيت مؤقتاً (ولربما نهائياً) من حقل الامكانيات الواعية والمضمرة للشريكين، من هنا تلك الدلالة التبخيسية للصيقة بالعزوبة التي يستبعد أن اطلاقاً أن تكون خياراً مقصوداً ومتعمداً للعازب، إلا أن الزواج نفسه ليس سوى نهاية لكبت مسترسل مفروض على الميولات الجنس مثلية عند المغاربة، ولقد تكفلت المنظومة التربوية، منذ الطفولة الباكرة، بتحديد الإطار الذي يسمح فيه بالبحث فيه عن موضوعات استثمار الرغبة الجنسية وتصريفها<sup>5</sup>.

يمكن القول في ظل هذا الحرمان الجنسي الذي يسم هذا البناء الاجتماعي والفصل التام بين عوالم الذكور وعوالم الإناث يجعل الأفراد يستبدلونهم بسلوكات جنسية بديلة أو اللجوء إلى ما يسميه مالك شبل بالإيروطيقا الذاتية، ليصبح اللجوء إلى الاستيهامات الجنسية التي تعتبر منحرفة اجتماعياً وأمرًا محرماً رغم أنه يشكل الملاذ الوحيد في حالة الحرمان الجنسي للذي يمارسه المجتمع على المراهقين، في هذا الباب يقول مالك شبل:

"يحد الابن الذي أصبح بالغاً نفسه ليلة الدخول أمام وضعية جديدة كل الجدة وغير عادية، ويتعين عليه فيها أن يواجه تغيراً في موضوع الحب كان يجهله حتى ذلك الوقت: وهذا الموضوع هو المرأة، ضمن هذه العبة المستمرة التي تقضي التراجع عن استثمار وإعادة استثمار آخر، ضمن هذا التحويل الخاطف للغريزة من موضع لآخر، يهيمن قلق حاد، ليس الإيواء الجنس مثلي، كما يعطى للنظر، حالة ثابتة وقارة يتمثل لها، بالضرورة، كل أنواع الأطفال، يتم تصورها، بالأحرى. في شكل هيئة مطاطية تضع الطفل والمراهق المغاربة"





في وضعية ملائمة — ضمناً — للاستثمار الجسماني، فالطفل والمراهق ليسا سوى بديلين مصطنعين وغير ملائمين لموضوع الاستثمار الواقعي، وبصيغة أخرى للمرأة. لمحا أعلاه إلى أن الشاذ الفاعل، وخارج كل لوم مصطنع، لا يثير سخطا عاما ولا الاحتقار والازدراء الموجهين للشاذ المفعول به، ومع ذلك، فإن مسألة الشذوذ الجنسي هذه كانت في مركز نقاش موغل في القدم بين مختلف الاتجاهات المكونة للزعامة الدينية في المجتمع الاسلامي، نقاش طبعته ردود فعل أخلاقية تناولت كل ما يصدر عن الشذوذ الجنسي الواعي واللاواعي، النشيط أو السلبي، بروح من الارتياب والشجب<sup>6</sup>.

إننا نجد أنفسنا في نفس السياق الذي وسم استنتاجات مالك سبل حول اعتبار الهوية الجندرية المختلفة كمرحلة انتقالية للشباب المغربي يلجأ إليها كبديل مصطنع للمرأة التي يفصله عنها المجتمع ولا يحق له الولوج إليها إلا عبر الزواج كصيغة شرعية للعلاقة الجنسية، بين فردين مغايرين الجنس الذي هو الأساس الذي بنيت عليه كل المعايير والقواعد الاجتماعية التي تضم الحياة اليومية في المغرب الكبير ليس فقط في قطرنا السوسيوثقافي المغربي.

لابد من الإشارة إلى واقعة جزئية داخل هذا التمثيل العام للتهميشية الجنسية هو بروز التعامل الخاص بشكل خاص ما يسميه مالك شبل بالشاذ الفاعل الذي يتعامل معه المجتمع بشكل من التسامح والتغافل بينما يتعامل بكل أنواع الازدراء والإساءة والتنمر تجاه الشاذ المفعول به.

إن هذه التقابلية على مستوى التفاعل مع مثلي فاعل ومثلي مفعول به مسألة ترجع لأهمية الفحولة في الحقل المجتمعي الإسلامي بالدرجة الأولى، وكذلك التصوير الكوسمولوجي الذي يمتح منه النظام الذكوري الأبوي المغربي، إذا ما أرجعنا هذا الأمر كما قلنا سلفا إلى تقابلات تجد لها ظهورا في الطبيعة، بين الصلب الذي يرمز للرجولة واللين الذي يرمز إلى الأنثوي، وبين الأعلى والأسفل والتحت والفوق، وهنا انطلاقا من هذه التقابلات فأى ذكر يكون في وضعية التحت أنه يولج ولا يلج فإنه يتم حذفه من خانة الرجولة بل يتم حذفه من السجل الاجتماعي الرسمي.

إن كانت هذه التقابلات تصب في اتجاه رسم معالم نظام اجتماعي كامل الأركان ينظم الحياة الجنسية حسب رؤيته الخاصة للإنسان، عبرها يضع مجموع من القواعد الملزمة للأفراد لسلكها قصد القيام بأدوارهم الاجتماعية المنوطة بهم.

إن هذا التفاعل الجنسي بين الصغار والكبار يمتح من داخل بيئة ثقافية تركز على سلطة العمر، تقتصر فقط عند هذه الجزئية التي في كل حال، لا تمارس إلا في كواليس المجتمع، بل وتمتد إلى أبعاد اقتصادية وسياسية تجعل من الكبار هم الأحق بالسلطة ولذلك يجرون ترتيبا اجتماعية وفق السن، "فمن الناحية النظرية، قد يتلق الأمر بمنع مزدوج: منع أفقي أولا، ذلك أن التواصل بين الجنسين ممنوع بصرامة، ومن عمودي بعد ذلك، لأن التقنين يمس أيضا العلاقات الجسمانية في هذه الجماعة أو تلك، سوف يكون الوضع المثالي في الواقع، هو الذي تتصور فيه مجموعتين مجردتين وجها لوجه، المجموعة الأولى مكوة من العذارى تحرقهن الشهوة، والأخرى مكونة من زهاد عتيقين يعيشون حياة مستقيمة حتى لحظة الزواج، والحال سواء أخذنا هذه المجموعة أو تلك، فإن هذا الاختلال في التوازن، الذي لطالما تم ذمه، هذا المنع للممارسات الجنسية التي تتم بين أفراد الجنس نفسه، وهنا جانب المفارقة في الليبدو الإنساني، هذا الشكل الأكثر استثمارا، والذي بدونه لن يكون هناك اشتغال جيد<sup>7</sup>.

إننا بصد لعبة محبوكة اجتماعيا تتخذ لغة صارمة من النفي وتجد تعبيراتها داخل المتن الفقهي، من جهة أخرى هذا المنع النفسي ليس كافيا لمنع الأفراد من اقتراف هذه الانحرافات كما يقول لسان حال البناء الاجتماعي، رغم كل المحاولات والتسامي عنه، يطفو مجددا في العقل الباطني للفرد وتبرز على شكل استيهامات ذاتية، على الرغم من أنها تحاط بكل أنواع وأنماط الاحساس بالذنب والخزي، هذا يدل على فشل ذريع لكل الآليات الاجتماعية التي تسعى إلى كبح تلك السلوكات والميولات الجنسية الغير شرعية سوسيوثقافيا.



إنه من الصحيح عندما يتعلق الأمر بالحمام، وبوضعيات أخرى عديدة تنسج فيها العلاقات سرا هناك ما يدعو إلى افتراض هذا البعد الواقعي للشذوذ الجنسي الذي تزرعه كثافة التسامي المحيطة بهالة البكارة الأنثوية، والمضاعفة ببنية نفسية منحدره منه، هذه البنية تضاعف، بدورها هذا البعد بشكل استبهامي ونقصد بها البنية النرجسية؛ هناك الكثير مما يجب أن يقال حول هذه المقولة، وبالأخص عن مخلفاتها في المجال الاجتماعي. إلا أننا سنكتفي بطرحها في سياق الهوية الجندرية المختلفة، حيث يتضافر كل شيء، ليكون لها دور بارز في التحضير للدخول إلى دائرة لا شعور الافتتان بالذكر، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، أي الحب الموجه إلى جسد الذكر، باعتباره تدشيناً لذلك الموجه إلى جسد الآخر، هكذا، فإذا كان الحمام يؤدي إلى نكوص نسبي للفرد، فهو لا يتحقق إلا إذا كانت تلك العودة/ النكوص مطبوعة بنرجسية مثالية، تجعل من الجسد واسطة لحشد من الإحساسات الجنسية وما قبل جنسية المرتبطة بمداعبة هذا الجزء أو ذاك فيه لهذه الأسباب، فإن الهوية الجندرية المختلفة في كل أشكالها: اللواط، والسحاق، وهو قارة مجهولة" والمراهقون المزدوجو الطبيعة المسمون (خنثاء) يستثمر لزم من طويل آخر في جو يسوده عدم الاكتراث بها من قبل أولئك الذين يتأثرون بقيم المروءة، والذين يشكلون، على ما يبدو وما يمكن تسميته بالأغلبية العددية"<sup>8</sup>.

إن بناء الهوية الجنسية أو الجندرية بتعبير أدق تساهم فيه مجموعة من العوامل تختلف في تأثيرها، أن لكل عامل جوانبه المميزة عن الأخرى، يبقى تركيزنا منصب على الأبعاد السوسيوثقافية على بناء الهوية الجندرية لدى أقلية جنسية لا تحض باعتراف رسمي من طرف المجتمع، فهذه الهوية تبنى اجتماعياً انطلاقاً من الولادة إلى البلوغ والوصول إلى مرحلة الرشد، بالتالي الاندماج في سيرورة الحياة الاجتماعية، هذا المسار تكتنفه مجموعة من العمليات السوسيو تربوية التي عبرها يتم تمرير قيم المجتمع والسلوكيات التي ينبغي على الأفراد سلكها، يتم طبع الأفراد بهوية اجتماعية مميزة لهم تحمل بين طياتها أدوار اجتماعية تميز فرد على فرد وفق مبررات جنسية أو طبقية أو اثنو ثقافية. ما يهمنا في هذا المضممار المبررات الجنسية التي يسوقها البناء الاجتماعي للأفراد ليحافظ على نفس البناء الجنساني، الذي يتميز في سياقنا المغربي بثلاث مرجعيات ثقافية وطبيعية في ذات الوقت أو مطبوعة بتعبير أدق.

✓ المرجعية السيكوفيزيولوجية : تشمل الملامح الجسدية العضوية التي تميز الأفراد جنسانياً ويتم التركيز عبرها على الذكور فيما يتعلق بالأعضاء التناسلية وحجمها والانتصاب والقذف ومدى الذروة الجنسية، وكيف يبني الحب لدى الذكور والموضوعات التي يشتهيها العقل الجنسي الذكوري، ولدى الاناث يتم التركيز على الجسد إلا عبر سيرورات شرعية تتجسد بالأساس في مؤسسة الزواج، هذه السيرورة تجعل حداً فاصلاً بين عالم الاناث والذكور، ما يجعل الميولات الجنسية المختلفة فرصة الظهور ليس كميولات مشرعة أو كنوع اجتماعي يفرض ذاته، بقدر ما هي ممارسات جنسية تعويضية للشباب المحروم جنسياً وتمثل الشريك من نفس الجنس موضوع جنسي مشابه أو بصورة امرأة .

✓ المرجعية الرمزية : وذلك يتجسد في التمثلات التي يصوغها العقل الجنسي المغربي كذوي الهوية الجندرية المختلفة كموضوعات جنسانية بدون معنى تشكل حوادثاً غير منطقية وضد الطبيعة البشرية، ويؤدي هذا التمثيل إلى بناء تمثلي جمعي عن الجنسانية المثالية، والجنسانية المنبوذة التي تشمل جل المهمشات الاجتماعية التي يستند عليها الفعل الجنسي، تتحول فيه المعطيات البيولوجية إلى قالب سوسيوثقافي يشرعن النظام الاجتماعي الجنسي القائم، وسمح باستيعاب منطلق المغايرة الجنسية المهيمنة اجتماعية عبر استدماجها في سيرورة التنشئة الاجتماعية .

✓ المرجعية المؤسساتية: تعني بالضرورة بالأطر الاجتماعية التي يستند عليها الفعل الجنسي، والتي تنظم العلاقة الجنسية وفق القواعد التي تنظم كل مجتمع وعبرها يتم تعريف الفعل الجنسي عبر مؤسسات اجتماعية كالزواج والأسرة وغيرها من الأشكال الرسمية للفعل الجنسي بينما تقبع المهمشات الجنسية كالبغاء والمعاشرة الجنسية والممارسات الجنسية اللواطية في خانة الهامش الاجتماعي.



"ذلك أن الهوية الجنسية البيولوجية ما هي إلا مستوى من مستويات الشخصية الجنسانية إذ تتضمن هذه الأخيرة مستويات أخرى مثل الهوية النوعية (genderidentity)، والتوجه الجنساني (sexualorientation)، في اختيار الشريك فيكون الشريك غيريا (heterosexuality)، أو مثليا (homosexuality) ومن ثم فإن الشخصية الجنسانية للفرد هوية ما فوق بيولوجية"<sup>9</sup>.

تعني ما فوق بيولوجية بمعنى أنها تتجاوز المعطى العضوي وتدمج البعدين الإنساني والاجتماعي عبر المتن العام للموضوع من خلال التركيز على ثلاث مستويات انطلقنا منها لتحليل دور الأبعاد السوسيوثقافية في تشكيل الملامح الاجتماعية لذوي الهوية الجندرية المختلفة، وهذه المستويات تنطلق:

■ **أولاً:** من سيرورة النمو التي عبرها يتعرف الفرد على جسده واستعمالات أعضاء جسده، وينزع إلى رغبات هي بمثابة إشارات شبقية لتشكيل الرغبة الجنسية منذ الطفولة، هذه لسيرورة تمتاز بدور محوري للأسرة في غرس قيم المجتمع في أفرادها الجدد وتوجه هوياتهم الجنسية إلى ما يتناسب مع التعريف الاجتماعي للنوع، هكذا يتعرض كل ميول غير مغاير للإخفاء والنفي في مهده أو تعريضه للكبت على الأقل.

■ **ثانياً:** التركيز على الفضاءات الاجتماعية التي تعتبر فضاءات للاستعراض الجنسي خصوصا عندما نتحدث عن الحمام كرمزية ثقافية في الحقل الاجتماعي المغاربي بشكل عام، وما يشهده من بروز لميولات جنسية مثلية يرجع إلى أزمة غابرة، وتشكلت في العقل الجمعي وتراجعت على شكل إيماءات أو نظرات غير مباشرة مخافة ردة فعل مترممة.

■ **ثالثاً:** دور العنصر الثقافي بشقيه الأمازيغي والعربي الاسلامي في بناء هوية اجتماعية جنسانية تنطلق من تصورا اجتماعية مزدوجة، بين تصور ثقافي يرجع إلى اسقاطات راسخة عبر التاريخ الاجتماعي للمنطقة المغاربية، ومن جهة أخرى تنطلق من الرؤية الدينية الضبطية للشأن الجنسي.

إن الهوية الجندرية المختلفة ليست حدثا عرضيا يتجاوز الأفراد المعنويون به بشكل عادي عبر مسار تطورهم الجسدي والجنسي، بقدر ما هي مول يختلف الأفراد في تأويلهم لطبيعته ولتمثلاتهم له، إلا أن الجميع يشترك في ميزة عامة هي أنه ميول جنسي منبوذ يؤدي بصاحبه إلى العيش في ظل انفصام ي الشخصية، بين نمط العيش الذي يجعل الفرد يشارك في الحياة الاجتماعية بشكل عادي، والنزوعات التي يقوم بها في سرية ول تمثالاته لموضوعات الرغبة الجنسية، فيصبح بين نار ردة الفعل الاجتماعي في حال اختار اظهار ميولاته للعلن، ونار الحياة الجنسية السرية التي تتطبع وضعه المرتبط بهويته الجندرية المرفوضة اجتماعيا.

إن رصد مسار التعايش مع هذه الميولات يطرح على عاتقنا التدقيق الشديد في حيثيات الحياة اليومية بكل تفاصيلها من أجل فهم أفضل وأشمل للتشكيلات الاجتماعية التي تعيش على هامش المجتمع، وأبلغ دليل على هذا الوضع هو وضعية الأقليات الجنسية، لا سيما الهوية الجندرية المختلفة، وبالخصوص ذوي الهوية الجندرية المختلفة الذين طالما يتعرضون بشكل حاد للعنف الاجتماعي بالمقارنة مع الأنماط الأخرى كالحساقيات أو عاملات الجنس.

إن اللتباس الذي يقف أمام معرفة يقينية لمسارات ذوي الهوية الجندرية المختلفة وتكيفهم مع المجتمع وإن كان يرفضهم، يتجسد أساسا من الاختلاف الكامن في صدمة الاكتشاف والصراع الداخلي الذي ينتج عن الاصطدام الذي يقع بين الميولات الجنسية التي تلقي بضلالها على رغبات مختلفة عما هو سائد، والقيم الاجتماعية التي يستبطنها الرد فتصبح جزءا لا يتجزأ من بنيته النفسية الكابحة.

إن ما يسترعي اهتمامنا أن معظم المستجوبين عاشوا بما يسمى صدمة البداية؟ باستثناء مستجوب واحد كان بالنسبة له وضعية عادية، فإن الثلاثة الآخرين عاشوا الصدمة والدهشة في المواجهة الأولى بينهم ورغباتهم الجنسية المختلفة عما هو نمطي، فكان ذلك يجعل من حالتهم النفسية في حالة من الغرابة عندما يسقطون في مقارنة بين ما يعيشونه من هواجس جنسية مختلفة عن أقرانهم، إلا أنه تجدر



الإشارة إلى أن أغلب المستجوبين لم يعيشوا علاقة جنسية إلا في مرحلة ذروة المراهقة التي غالباً ما تكون بين 15 و 18 سنة، إن معايشة علاقة جسدية تكون أول اختبار لتلك الميولات المختلفة حسب المستجوبين، بل تكون المرحلة الفارقة التي يحسم فيها الأفراد ميولاتهم الجنسية ما إذا كانت غيرية كعامة المجتمع وما إذا كانت هوية الجندرية المختلفة، سوف تؤدي إلى صراع داخلي ينتج عنه تصادم داخلي بين القيم الاجتماعية التي استبطنت في البنية النفسية للفرد وبدأت تمارس كنوع من تأنيب الضمير، والرغبات الجنسية التي لا تعبأ بتلك القيود وتتمرد عليها، ليصبح الفرد في مرمى حالة اضطراب نفسي يزيد من وطأتها النفسي والنبد الاجتماعي الذي يسلط على الأفراد الذين في نظر المجتمع غير طبيعيين بل يعتبرون خارج الملة وهم مرتكبون لأكثر الكبائر فداحة داخل المعتقد الاسلامي.

انطلق عالم النفس الروسي أ. س. كون لتحليل التناول العلمي لظاهرة الهوية الجندرية المختلفة أو كما يسميها بالجنوسية، وانطلق من الحقل المعرفي السيكولوجي أو ما يسمى السيكولوجيا الطبيعية التي تنطلق من مقدمات بيولوجية لتحليل بعض الظواهر الملتبسة على غرار الهوية الجندرية المختلفة، في هذا السياق في عام 1835 أدخل الطبيب والاثنوغرافي الانكليزي جيمس برينشارد فكرة "الجنون الأخلاقي (moralimsamity) و"الشذوذات المرضية لبعض الأحاسيس والرغبات، لكن بدوزن فقدان العقل، إن هذه الفكرة مناسبة تماماً لوصف الانحرافات عن الحالة الطبيعية لأشكال السلوك الجنسي التي تناول مركبات منفردة للرغبة الجنسية (كاختيار موضوع جنسي أو وضعية وطريقة لإشباع الرغبة غير مألوفتين. الطب النفسي في هذا السياق يتحدث عن مفهوم الشذوذ الجنسي كتوصيف مرضي وليس كحالة تشير إلى ميول جنسي مختلف عن الميول النمطي، وكأنه يعبر عن المثلية كاحتلال عضوي يصيب الدافع الجنسي.

"وبرز في هذا المجال بشكل خاص "كرافا — إيبينغ" في كتابه "الأمراض الجنسية النفسية" الذي يحتوي أمثلة سريرية كثيرة، بيد أن تفسير هذه المعطيات يخلو من أي انسجام، وكمثال على ذلك يمكن أخذ المناقشة التي استمرت عدة سنوات بين "كرافت إينغ" وبين عالم النفس الفرنسي الشهير "الفريخ بيتي" حول طبيعة الفيتيشية، وقد أعطى "كرافت إينغ" كمدافع عن الحتمية البيولوجية، أهمية بالغة للعوامل البيوية، وعلى العكس أشار "بيتتي" إلى أهمية دور الارتباطات والعلاقات الجمعية: فقد يحدث الدفق المنوي عند مراهق فجأة ويصادف ذلك وجود امرأة مرتدية مندبلاً معطراً بالليلك، وبتيجة تثبت هذا الجمع تستثير رائحة الليلك عن المراهق تهيجا جنسيا فيما بعد حتى بغياب المرأة نفسها"<sup>10</sup>.

إن هذا النزوع نحو تبرير الهوية الجندرية المختلفة وكل ما يدور في ذلك المهمشات الجنسية يهدف إلى إدراج المثلية في سياق الاضطراب العضوية التي تصيب أفراد معينين، قد ترجع إلى ظروف العائلة ونشأته، وقد ترتبط بأزمات عاطفية أصابت الفرد ففي سن مبكر أرخت بضلالها على سلوكاته الجنسية وأنتجت هذه الرغبات المنحرفة والشاذة إن صح القول.

" كما قدمت العلوم الإنسانية في بداية القرن العشرين دفعا لعلم الجنس السريري، وخصوصا الاثنوغرافيا والتاريخ، وكان الرحالة والجغرافيون القدامى قد وصفوا عادات وتقاليد الشعوب الغربية، ولفتوا الانتباه لميولاتهم الجنسية، وتوجد وقائع عديدة في العلوم الاثنوغرافية في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، بيد أن هذه المعلومات لم تكن ممنهجة وتذكر غالباً بمختارات الطرائف، ولم يكن المؤلفون الأوروبيون، مؤهلين لتجاوز أخلاقهم الجنسية الخاصة، وبنظر انجلز نظر هؤلاء إلى تقاليد الشعوب غير الأوروبية، في الظروف البدائية على أنها بيوت الدعارة (المجلد الثاني. صفحة 41 بالروسية) فعندما شل مبشر ديني انكليزي عن عادات وأخلاق السكان الأصليين في استراليا أجاب بثقة: " لا توجد أي عادات والأخلاق بهيمية" إن ظهور علوم الاثنوغرافيا والاثروبولوجيا (علم الإنسان) في القرن التاسع عشر قلب كثيرا من التصورات، وبما أن الثقافة الأوروبية لم تتعلم تحليل أخلاقها الجنسية الخاصة نقدا بمقدورها دراسة الجنس عند "الشعوب الغربية" موضوعيا.



تجنب معظم علماء الانتوغرافيا والإنسان في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين هذه الأسئلة "الحرجة" ولم يكن بالإمكان نشر هذه المواد إلا بصعوبة، ومع هذا قامت محاولات أولى بهدف تعميم المعلومات التاريخية الانتوغرافية، مثل "تطور الزواج والأسرة" للانتوغرافي الفرنسي "تشارل ليتورنو 1888"، و "تاريخ الزواج البشري" للانتوغرافي وعالم الاجتماع الفنلندي "ادوارد فيستر مارك 1891" .. إلخ. وجيء بشواهد عن الرمزية الجنسية والسلوك في دراسات تاريخ الدين ودراسة الطقوس القديمة لتأهيل الاجتماعي والجمعيات السرية والاتحادات الذكورية، ولم تستطع الفلسفة الكلاسيكية البقاء مكتوفة الأيدي أمام مشكلة اللواط في حضارتي الرومان واليونان القديمتين .. إلخ<sup>11</sup>.

إن هذا التأريخ للدافع الجنسي و ابراز أن ظاهرة الهوية الجندرية المختلفة كانت ولا زالت مصدر جدل واسع في الأوساط العلمية لا سيما في حقل العلوم الإنسانية انطلاقا من الحقل السيكلوجي وتتطور نظرتة حول الهوية الجندرية المختلفة من خلال اعتباره اختلال في أداء الوظيفة الجنسية تحدث للفرد بسبب عدة عوامل منها ما هو مرتبط بظروف نشأة الفرد وبعض الأحداث التي طبع مسار حياته أدت إلى سلك مسار غير ما هو ملقى له اجتماعيا والذي يعده للعب دور الجنسي كذكر يلج وينتج وليس سالبا كباقي المولوجات التي تعد في خدمة متعة الذكر الجنسية.

يصبح مسار التعايش ما هو إلا المنعطف الذي إما تبرز فيه هوية الفرد الجندرية المختلفة بالخصوص، أو يتم دفنها وتتسرب على شكل رغبات تلبى بشكل سرّي مخافة ردة فعل المجتمع، كما أن المعطيات الميدانية أظهرت التأثير الفعلي الاجتماعي على الجنس، وتعبير أدق الاجتماعي هو الذي يحدد الجنسي وهذا ما يتمظهر بشكل فعلي في العمليات الجماعية التي تتم مؤسساتيا وعبرها يتم إعداد الفرد لتقبل سلوكيات بعينها وتصورات تبقى وفق منظومة تربوية متشددة تجاه مسألة الدور الجنسي الذي بدوره يرتبط بشكل وثيق بتقسيم العمل الاجتماعي بين الذكور والإناث، بينما تصنف الرغبات الجنسية المختلفة في حانة الشاذ واللاطبيعي.

إن هذا المنطق الجنساني يعتبر الرجل بدون أدنى شك الرجل كفاعل جنسي أوحد، ويضع عملية الإبلانج مركزية في العلاقة الجنسية كميزة وتفوق وسيطرة ذكورية بمنطق مزدوج يمتح من مركزيته السوسيوثقافية والرمزية، ومن جهة أخرى يتموقع المفعول بهم جنسيا كالنساء والجواري، وعاملات وعامل الجنس يرزحون في نطاق السلبية، على اعتبار أنهم جميعا يخضعون لمشية وسلطة القضيب، ويشتركون في تلقيه بمعنى أن ما يسمى بالمهمشات الجنسية لا تشمل فقط ذوي الهوية الجندرية المختلفة بقدر ما تشمل كل الممارسات الجنسية الخارجة عن الإطار المؤسساتي الاجتماعي، وبروزها (الهوية الجندرية المختلفة) يقابل بوصم وإبعاد اجتماعي بل وتوصف كانحراف عن المؤلف، في سياق اجتماعي يمن بقناعة راسخة أنه لا وجود لنوع اجتماعي ثالث، ولا وجود لعلاقة جنسية غير تلك التي تجمع بين الرجل والمرأة.

إن ما يمكن أن نخلص إليه في هذا الباب أن الهوية الجندرية تتأطر ضمن إطار اجتماعي بيولوجي وجعله يتناسب مع التمثل الجمعي حول النوع الاجتماعي، وعبره يتم بناء هويات الأفراد سوسيوثقافيا وفق النموذج المثالي المراد اجتماعيا.

إن هذا الاستنتاج يرتبط بشكل جدلي بسمات البناء الجنساني المغربي، الذي يتميز بالترابية والثنائية الصارمة من قطب مهيم وسائد يتجسد في العنصر الذكوري، وقطب آخر خاضع ومهيم عليه يتمثل أساسا في العنصر الأنثوي وكل ما يدور في فلكه، إن هذه السمات مرتبطة بالأساس بالطر الاجتماعي التي تتحكم في شكل ونمط جنسانية الأفراد، وبشكل خاص تجدر الإشارة إلى الجماعة الاجتماعية التي ماهي إلا عبارة عن نسق اجتماعي يتكون من عدد من الأفراد يتفاعلون مع بعضهم البعض، ويشتركو القيم، وبعض الأنشطة، فالمجتمع هو نسق اجتماعي يتكون من جماعات تضم أفراد يرتبطون بالسياق العام للمجتمع، وللقيمة وعاداته، يكاد يكون من المستحيل تعيين الحدود الدقيقة للمجتمع، والأصح أن تلك الحدود ترسم بطرق مختلفة لتحقيق أغراض مختلفة في كل مرة أي حسب الأحوال،



وحسب الهدف من عملية تعيين الحدود، ثم عنصر الثقافة الذي يشكل الجانب الذي يعرف بالمجتمع، ويطبعه بطابع خاص، فالثقافة تتكون من أنماط النشاط الإنساني المكتسبة والمتواجدة اجتماعيا، ومن الأشياء (العناصر المادية) المرتبطة بها.

نميز أحيانا بين بعض جزئيات أو عناصر ثقافية تسم أو تدخل من سمات لتشكيل بذلك مركبا ثقافيا، بالتالي فالطقوس المحيطة بالأفراد منذ ولادتهم في بيئتنا الاجتماعية، فالعناصر السالفة الذكر أي الجماعة والثقافة والمجتمع، هي التي تشكل النظام الاجتماعي، الذي ما هو سوى عبارة عن نمط من النشاط الاجتماعي، والقيم التي تصاحبها والتي ينتج عنها صيغ مختلفة من التفاعل الاجتماعي، ليصبح بهذا النظام الاجتماعي ظاهرة ثقافية وتنظيمية في نفس الوقت، فهو يتضمن بشكل أو بآخر الصفات التي وضعها المجتمع لسيرورة الحياة الاجتماعية برمتها، وتراكت عبر الأجيال خاصة بالتعامل مع الاحتياجات الأساسية، كما يتضمن الأفراد والتنظيمات القائمة بأداء هذا العمل.

إننا نقيم علاقة وطيدة بين الهوية الجنسية والنظام الاجتماعي، باعتباره المحدد الأساسي لتوجهات أفراد، ولما يمكن أن نسميه وضعهم داخل البناء الاجتماعي، فهم بذلك ضمان تماسكه، وتفاعلهم معه يتأطر ضمن نسق من القيم والمعايير المنظمة للسلوك في شتى مناحي الحياة الاجتماعية وليس تقيد في بعده الجنساني.

### الجسد كموضوع جنسي:

إن الجسد ليس فقط كجهاز فيزيقي يتكون من عدة عناصر وله وظائف متعددة، بقدر ما يجاوز هذا التوصيف، ليصبح الجسد كرمز وككينونة تستبطن أبعادا مختلفة نجعل منه موضوعا لعدة حقول معرفية، فإن ما يهمنا في هذا الصدد هو المعنى الاجتماعي للجسد وليس معناها العضوي، لو أنه في بعده الجنسي يستتبع جوانب عضوية مرتبطة بالتشريح البشري على مستوى الأعضاء التناسلية، على الرغم من أنه لا يجب أن نحصر المعاني الجنسية للجسد في المنطقة الجنسية بل تمتد إلى مناطق أخرى، كالثدي مثلا والأرداف عند النساء والصدر عند الرجل، فهي توصيات ثقافية تختلف من بيئة اجتماعية إلى أخرى.

يبني الجسد اجتماعيا انطلاقا من تحديدات تتشكل من طرف النسق الاجتماعي وتحدث خارج نطاق إرادة الأفراد، ليتخطى الجسد ملكية شخصية للأفراد ويصبح بهذا الجسد ليس مجرد موضوع عضوي بسيط بقدر ما هو موضوع تملك اجتماعي يستند إلى التمثل الجماعي للمجتمع حول وظائفه وأدوار الأفراد من خلاله.

يمكننا أن ننطلق من فكرة أساسية ميزت أغلب معطيات المستجوبين خلال هذه الدراسة، كانت له ندبات نفسية مرتبطة بالجسد، والتساؤلات المرتبطة به، خصوصا ما يتعلق بالهويات الجندرية المختلفة التي تخلق لدى الأفراد نوعا من التيه وعدم الاستقرار النفسي، نظرا للهالة الاجتماعية التي ترفض أي نزوع غير الذي حددته في ما يتعلق بالنوع الاجتماعي، إلا أن هذا الأمر شهد إشارة صريحة فقط من طرف مستجوبين فقط، بينما تحفظ المستجوبين الآخرين، إلا أن رصدنا لهذه الفرضية في باقي المعطيات شهدت إشارات غير مباشرة لإشكالية العلاقة المرتبطة بالجسد المتشكل اجتماعيا والذي يحدد له المجتمع دوره سلفا، والهوية الجنسية التي تنحو نحو رغبات مختلفة عن ما هو نمطي، ليتشكل عن ذلك نوع من الصراع الداخلي بين ما ينزع له الفرد جنسيا، وما خلقه من قيم وأفكار سوسيو ثقافية حول الجنس والجسد، ويقول كرس شلنج في هذا السياق: تشكل رؤى البنائية الاجتماعية تحدينا لهذا النزوع عبر إقحام المجتمع في الجسد، وفق ذلك، فإنهم قاموا بالكثير في علم الاجتماع لجعل الجسد موضوع تركيز بحثي جدير بالاحترام، إذا كان الجسد يشكل حقيقة عبر المجتمع، فإنه لم يعد تركه كلية في أيدي القائمين على فروع معرفية أخرى، فضلا عن ذلك، بإلقاء الضوء على السبل التي يمكن عبرها اعتبار الأدوار الاجتماعية والدلالات والموارد، محددات للجسد وكيف أصبح مهما للمجتمع، لدى رؤى البنائية الاجتماعية الكثر كي تقوله فيما يتعلق بالمقارنة المميزة للجسد في علم الاجتماع.



تواجه مشاكل البنائية الاجتماعية، فبينما يقال لنا الكثير عن أهمية الجسد الاجتماعية من قل هذه الرؤى، فإننا لا نتعلم إلا القليل بخصوص ماهية الجسد، إننا نسمع عن العوامل الاجتماعية التي تشكل شيئا اسمه "الجسد"، لكننا نخبر بأقل من ذلك كما يتم تشكيله، هذا يعني أنه بينما يمكن تحديد الجسد بوصفه فضاء نظريا، غالبا ما يترك دون بحث كما لو أن الجسد نفسه لا يوجد، أو يدفع بشكل مستديم شطر جانب واحد من قبل هذا المنظور يصيب تركيزه المستمر على ظواهر أخرى، نتيجة لذلك، فأنا نعلم القليل عن السبب الذي يلزم تبوء الجسد، أيا ما كان، هذه المنزلة المهمة<sup>12</sup>.

يضعنا اقتباس شلنج أمام هذه الواقعة المتحسدة في الجسد واشكالية الميول الجنسي، ووفق المنظور البيوي فإن الجسد يصبح جوهر المجتمع يحاط بكل أنواع الرقابة، بالتالي فالمقاربة البيوية تجعلنا نرى المجتمع المغربي بكيفية أكثر وضوح افي تمثلها للجسد، والذي يعكس ما حبلت به المعطيات الميدانية، فيما يتعلق بارتكان الأفراد للتأثير القوي للأخلاق وتصور كل أساليب السيطرة الاجتماعية على الجسد، بل وكما قلنا سابقا أنه أصبح ليس قط موضوع رقابة بل تملك اجتماعي، بحيث أن الجسد منذ بزوغ مميزاته الجنسية يؤطر وفق تصور جمعي، بمختلف أنواع البنى الرمزية التي تنطوي على توجيه مباشر عبر ضبط السلوكات وتوظيف المرغوب فيه اجتماعيا للجسد الإنساني، وغير مباشرة عبر إشارات رمزية تستبطن بين طياتها النظرة المحكومة بالرفض والازدراء لكل توظيف جنسي للجسد غير المتعارف عليه اجتماعيا.

#### خاتمة

بشكل عام يمكن القول إن الهوية الجنسية ليست مجرد معطى فيزيولوجي، يتم فهمه انطلاقا من وظائفه الحيوية الجسدية بالأساس، بيد أنه تتعداه إلى أكثر من مجرد جسد يتحرك وفقا لأدواره الفيزيولوجية. إن ما يحيل على الجنسي هو بالضرورة في صنف اللامسموح اجتماعيا، لاسيما عندما نحون بصدد الكشف عن الأبعاد الثقافية والاجتماعية للموضوعة تساءل النوع الاجتماعي، فتحديد التوجه الجنسية أو الهوية الجنسية هو بالضرورة مرتبط بالسياق الاجتماعي والقواعد والمعايير التي تحدد طبيعة الفرد ومكانته ودوره الاجتماعي، وعلى أساسه يتم تحديد النوع الاجتماعي الطبيعي والنوع الشاذ، خصوصا عندما يكون النقاش موجهها إلى المهمشات الجنسية.



## الهوامش:

- 1 علم اجتماع الجندر، تأليف الأستاذ الدكتور معن خليل العمر، <https://shorok.com>، ص 9.
- 2 ا. س. كون الجنس من الأسطورة إلى العلم، ترجمة منير شحود، دار الحوار للنشر والتوزيع. اللاذقية. الطبعة الأولى 1992، ص 22 و 23.
- 3 بيار بورديو، الهيمنة الذكورية، ترجمة د. سلمان قعفراني، مراجعة من هو تريمش، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت نيسان/ ابريل 2009. ص 29.
- 4 بيار بورديو، الهيمنة الذكورية، ترجمة د. سلمان قعفراني، مراجعة من هو تريمش، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت نيسان/ ابريل 2009. ص 28.
- 5 مالك شبل، الجنس والحريم روح السراري، السلوكات الجنسية المهمشة في المغرب الكبير، ترجمة عبد الله زارو، افريقيا الشرق. 2010. ص 37.
- 6 مالك شبل، الجنس والحريم روح السراري، السلوكات الجنسية المهمشة في المغرب الكبير، ترجمة عبد الله زارو، افريقيا الشرق. 2010. ص 38.
- 7 مالك شبل، الجنس والحريم روح السراري، السلوكات الجنسية المهمشة في المغرب الكبير، ترجمة عبد الله زارو، افريقيا الشرق. 2010. ص 37.
- 8 مالك شبل، الجنس والحريم روح السراري، السلوكات الجنسية المهمشة في المغرب الكبير، ترجمة عبد الله زارو. ص 39 و 40 افريقيا الشرق. 2010
- 9 أسئلة شائعة منظمة كاس للبحوث الثقافية والتضامن للمثليين والمثليات. طباعة سنة 2018. انقره
- 10 ا. س. كون. الجنس من الأسطورة إلى العلم، ترجمة منير شحود، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية. الطبعة الأولى 1992. ص 18 و 19.
- 11 ا. س. كون. الجنس من الأسطورة إلى العلم، ترجمة منير شحود. ص 20 دار الحوار للنشر والتوزيع. اللاذقية. الطبعة الأولى 1992.
- 12 كرس شلنج، الجسد والنظرية الاجتماعية، ترجمة منى البحر، نجيب الحصادي، دار العين للنشر 2009، ص 105.